ابن سينا وكيمياؤه

الدكتور

فاضل احمد الطائي

القسم الاول

تبوأ ابن سينا — ابو علي الحسين بن عبدالله بن الحسن بن سينا — مكاناً مرموقاً في العلم والفلسفة ، ولا سيما في الطب وعلم النفس ، فقد ابدع في هذ ين الفرعين وبز من قبله واضاف الكثير الى مـــا عرف عنهما من قبـــله . وكتب في الطبيعيات والهندسة والرياضيات والكيمياء وفي الفلسفة واللغة العربية نحواً وصرفاً وبلاغة وشعراً ، وله من كتب اللغة والشعر ما يجعله بين المرتبة الاولى بين المعنيين بهما حسب . وزار بلداناً كثيرة ، وتقلد مناصب رفيعة ، وذاع صيته في المشرق اولا ، ودوى صداه في المغرب من القرن الثاني عشر للميلاد والى هذا الوقت ، وسيبقى ذكره حياً ما دام انسان يفقه ما يقرأ ، وحظي بالقاب علمية — على قصر عمره فيما لم يحظ العلماء المعمرون مثلها ، فلقب بالشيخ الرئيس وبجالينوس

* لقد ذكرت الموسوعة البريطانية حياة ابن سينا (٩٧٩ — ١٠٣٧) أي إن إبن سينا قد عمرنحواً من ستين عاما هجرياً ، بينما جعلت المصادر العربية الموثوقة أقصى حد لحياته ثمانية وخمسين عاماً هجرياً ، وذكرت بعض المصادر العربية ان عمر ابن سينا ثلاث وخمسون عاماً هجرياً ، ومنهم من ذكر عمر ابن سينا خمسة وخمسين عاماً هجرياً ، على ان جميع المصادر العربية وغيرها قد اجمعت على سنة وفاته وكان ذلك عام ثمان وعشرين واربعمائة للهجرة . واذا ما حولنا هذا العام الهجري الى العام الميلادي فيكون مطلع ١٠٣٧ م ومولد ابن سينا في العام الميلادي كان في أواخر عام ٩٨٠ م .

العرب وهو في ريعان شبابه ، حيث اعتلى المرتبة الاولى في الطب قبل ان يتم الثانية والعشرين من عمره ، واغترف من العلم واللغة واستوعب ما اغترف في صباه ، ما لم يتيسر لغيره قبل منتصف العمر او قرب الشيخوخة . فاذا كان الكندي عملاق الفكر العربي ، والرازي طبيب عصره ، وابن حيان رجل الكيمياء في العرب والفارابي ارسطو زمانه ، والبيروني موسوعة قرنه ، فابن سينا عبقري دهره دون منازع ولا بد لسيرة مثل هذا الرجل ان تكون معروفة واضحة عندما تدون بعد وفاته بقليل ، ولا بد ان يكتنف هذه السيرة الكثير من القصص الخيالية والاقاويل ذماً او مدحاً . وكان ابن سينا احسن بذلك فدون سيرته بنفسه ، ثم اتمها تلميذه الذي لازمه طيلة حياته ، وهو ابو عبيد الجوزجاني الذي توفي بعد وفاة استاذه بخمسة وعشرين عاماً . وجاءت ترجمة ابن سينا في جميع الكتب التي تعنى بالسير والترجمات للعلماء والفلاسفة والبارزين من اهل الفكر . وقد اجمعت جميع المصادر على سنة وفاته ، باستثناء الموسوعة البريطانية التي ذكرتها خطأ في التقويم الميلادي . وهناك تباين ضئيل في سنة ولادته كما سنرى . ويبدو ان ابن ابي اصيبعة (١) قد جاء بالنص الذي اعتمد الترجمة التي كتبها الشيخ الرئيس عن نفسه ، وما اضاف ابو عبيد الجوزجاني اليها

قال ابو عبيد الجوزجاني ، قال الشيخ الرئيس : « ان ابي كان رجلا من اهل بلخ ، وانتقل منها الى بخارى ، في ايام نوح بن منصور واشتغل بالتصرف ، وتولى العمل في اثناء ايامه بقرية يقال لها خرميثن (٢) من ضياع بخارى ، وهي من امهات القرى وبقربها قرية يقال لها افشنة ، وتزوج ابي منها بوالدتي وقطن وسكن ـــواسم امه ستارة ـــ (٢) ولدت منها بها . ثم ولدت اخي ، ثم انتقلنا الى بخارى ، واحضرت معلم القرآن ومعلم الادب واكملت العشر من العمر وقد إتيت على القرآن وعلى كثير من الادب ، حتى كان يقضى منى العجب ، وكان ابي ممن اجاب داعي المصريين ويعد من الاسماعيلية . وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل .

لقد ظهرت فرقة القرامطة الغربية في جنوب امبراطورية الخلفاء ، وكان هذا منذ عهد المكتفى المجيد ولكن هذه الفرقة قد ضعف حالها وهزلت في زمن ابن سينا ، غير ان فرقة الاسماعيلية التي ترتبط بالقرامطة قد ارتفع شأنها ، وقبضت على زمام

السلطة السياسية بمصر واقامت الدولة الفاطمية ، واخذت تبشر بتعاليمها في النفس والعقل ، فاستساغها والد ابن سينا واعتنقها ، ولا سيما ان الامير في خراسان منصور ابن نوح الساماني كان اسماعيلياً وكان والد ابن سينا من الكفاة عنده (٣)

وفي سنة مولد ابن سينا خلاف ، فقد اجمعت دائرة المعارف الاسلامية (٤) ، والقفطي (٥) ، والبيهقي (٦) ، وابن خلكان (٧) ، وابن العبري (٨) ، والزركلي (٩) ، والعسقلاني (١٠) ، على ان ابن سينا ولد في سنة سبعين وثلاثمائة للهجرة (٣٧٠) هـ ومنهم من ذكر شهر صفر للعام نفسه . وذكر ابن ابي اصيبعة (١١) ان ابن سينا قد ولد عام خمسة وسبعين وثلاثمائة للهجرة ، وانفرد الخوانساري (١٢) في ذكر مولد ابن سينا فجعله سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة (٣٧٣) هـ . ولعل ابن اصيبعة اقربهم الى الحقيقة ، ذلك لانه اول من وضع نص ما ذكره الجوزجاني عن استاذه ابن سينا ، كما كان ابن ابي اصيبعة طبيباً ماهراً واباه كحالا ذائع الصيت لذا فهو يعنى عناية خاصة بالاطباء وسيرهم .

تجلت عبقرية ابن سينا منذ صباه ، فقد أتى على القرآن وعلى كثير من الادب وهو في العاشرة من عمره ، وقلما حدثتنا كتب السير عن عالم حصل على معرفة بقدر معرفة ابي علي وهو في سنه ، ولا غرو ان اثار ذلك عجب عارفيه ، فيقول هنا ما نصه « واحضرت معلم القرآن ومعلم الادب ، واكملت العشر من العمر وقد اتيت على القرآن وعلى كثير من الادب ، حتى كان يقضى منى العجيب » . ولم تذكر الرواية اسم الرجل الذي علمه القرآن والادب ، ويحتمل ان يكون هذا الرجل ابا بكر احمد بن محمد البرقي الخوارزمي (١٣)

لم تر نصاً يؤيد ما ذهب اليه ابن قيم الجوزية (١٤) عن لسان ابن سينا نفسه حيث قال « وكان ابن سينا ، كما اخبر عن نفسه قال : انا وابي من اهل دعوة الحاكم ، فكان من القرامطة الباطنية ، الذين لا يؤمنون بمبدأ ، ولا معاد ، ولا رب خالق ، ولا رسول مبعوث جاء من عندالله » . ، وفي مكان آخر ذكر المصدر نفسه ، وصارع محمد الشهرستاني ابن سينا في كتاب سماه « المصارعة » ابطل فيه قوله بقدم العالم ،

وانكار المعاد ، ونفي علم الرب تعالى وقدرته ، وخلقه العالم » . واورد ابن قيم الجوزية في الكتاب نفسه حين يرد على فلسفة نصير الدين الطوسي ما نصه « والفلسفة التي يقرؤها اتباع هؤلاء اليوم هي ماخوذة عنه ، وعن امامه ابن سينا ، وبعضها عن ابي نصر الفارابي ، وشيء يسير منها من كلام ارسطو » .وذكر ابن الاثير « ان ابن سينا عاش نديماً لأمير اصفهان علاء الدولة بن كاكويه الذي اتهم بالزندقة لملازمة ابن سينا له » وجاء في لسان الميزان للعسقلاني (١٦)في مستهل الكلام عن ابن سينا» الحسين بن عبدالله بن سينا ، ابو علي الرئيس ، ما اعلمه روى شيئاً من العلم . ولو روى لما حلت الرواية عنه ، لانه فلسفي النحلة ضال لا رضي الله عنه انتهى

والحقيقة ان ما جاء في النص الذي ذكره ان ابي اصيبعة ينفى كون ابن سينا قرمطياً او اسماعيلياً ، فهو يعترف ان اباه واخاه كانا من الاسماعيلية ، ولكنه لم يذهب في ما ذهبا ، بل ان الاسماعيلية لم ترق لنفسه . اما انه من رجال الفلسفة فذلك حق ، فقد ألف في الفلسفة ، وكتب فيما وراء الطبيعة ، والظاهر ان بعض المتزمتين قد اعتبروا الدخول في فلسفة ما وراء الطبيعة زندقة ، وهذا نص ما جاء في كلام ابن سينا نفسه « وكان ابي ممن اجاب داعي المصريين ويعد من الاسماعيلية وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم . وكذلك اخي . وكانوا ربما تذاكروا بينهم وانا اسمعهم وادرك ما يقولونه ولا تقبله نفسي ، وابتدأوا يدعونني ايضاً اليه ، ويجرون على السنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند . واخذ يوجهني الى رجل كان يبيع البقل ، ويقوم بحساب الهند حتى اتعلمه منه » . يشير النص الى ان اباه واخاه قد دعواه الى اعتناق الاسماعيلية ، ولكن ليس في النص ما يشير الى انه وافقهما بل على النقيض من ذلك ، فنفسه لا تقبل هذا المذهب ، بل تعلم حساب الهند على بائع البقل .

ودرس ابو علي مبادئ المنطق والفلسفة على ابي عبدالله الناتلي(*) المدعو بالمتفلسف الا ان علم الرجل فيما درّس لم يكن وفيراً ولا عميقاً فقد بزه تلميذه بفترة وجيزة ،

(*) ورد الاسم بالتاء الناتلي . دائرة المعارف الاسلامية ص ٢٠٤ ، والبيهقي ص ٥٣ .

وعلم ان لا فائدة من الدراسة عليه لا خفاقه في معرفة الدقائق . لذا اعتمد ابن سينا على قراءة الكتب بنفسه لاستكمال دراسة الفلسفة والمنطق فيقول في هذا الصدد ثم جاء الى بخارى ابو عبدالله النائلي وكان يدعى المتفلسف ، وانزله ابي دارنا رجاء تعلمي منه . وقبل قدومه كنت اشتغل بالفقه والتردد فية الى اسماعيل الزاهد ، وكنت من اجود السالكين . وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذي جرت عادة القوم به . ثم ابتدأت بكتاب ايساغوجى(+)على النائلي.ولما ذكر لي حد الجنس ، انه المعقول على كثيرين مختلفين بالنوع في جواب ما هو ، فأخذت في تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله ، وتعجب مني كل العجب وحذر والدي من شغلي بغير المعلم . وكان اي مسألة قالها لي اتصورها خير منه ، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه . واما دقائقه فلم يكن عنده منها خبرة . ثم اخذت اقرأ الكتب على نفسي واطالع الشروح حتى احكمت علم المنطق » وقد اخطأت بعض المصادر (١٧)حيث قالت ان ابن سينا قد درس المنطق على النائلي حتى احكم عليه. بل ان احكام المنطق جاء بدراسة شخصية لصاحبنا ابي علي .

وابتدأ ابن سينا بدراسة بعض اجزاء اقليدس ، واتم حل ما فيه من مشاكل بنفسه وانتقل الى دراسة المجسطي (*) مع النائلي ألا انه فاق استاذه في هذا ايضاً ، فيقول« قال لي النائلي تول قراءتها وحلّها بنفسك ، ثم اعرضها عليّ لابين لك صوابه من خطئه،وما كان الرجل يقوم بالكتاب ، واخذت احل ذلك الكتاب فكم من شكل ماعرفهالى وقت ما عرضته وفهمته اياه ثم فارقني النائلي الى كركانج ، واشتغلت انا بتحصيل الكتب من النصوص والشروح ، من الطبيعي والالهي ، وصارت ابواب العلم تنفتخ عليّ » .

ورغب ابو علي في دراسة الطب وصار يقرأ الكتب المصنفة فيه ، وبرز في الطب في مدة قصيرة ، حتى بدأ فضلاء الاطباء يقرأون عايه علم الطب ، ذلك لأن عام

+ وهوكتاب في المنطق .

* المجسطي بكسر الطاء هوكتاب في الفلك ألفه بطيلموس ونقل الى العربية .

الطب سهل المنال فهو يقول «وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة فلا جرم اني برزت فيه في اقل مدة » . ويروي انه درس الطب على ابي سهل المسيحي وابي منصور الحسن بن نوح القمري ، كما درس الفقه وناظر فيه وهو في السادسة عشرة من عمره ، واشارت بعض المصادر الى ان ابن سينا اتقن الفقه واخذ يفتى على مذهب ابي حنيفة وهو لما يزل في الثانية عشرة من عمره (١٨) واعاد دراسة المنطق والفلسفة ، واستغرقت هذه الدراسة نحواً من عام ونصف العام ، ودراسة المنطق والفلسفة من الدراسات الصعبة حقاً لذلك قد ارهقت ابن سينا ولاسيما انه اتمها في مدة قصيرة ، فيقول بهذا الصدد « ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفاً ، فاعدت قراءة المنطق وجميع اجزاء الفلسفة ، وفي هذه المدة ما نمت ليلة بطولها ، ولا اشتغلت النهار بغيره وجمعت بين يدي ظهوراً » .

وكانت حياة ابن سينا حياة قلقة ، وفترة عمره فترة مليئة بالاحداث الحربية والتقلبات السياسية ، الامر الذي اثر في نفسه تأثيراً بليغاً فتراه حيناً ناسكاً متعبداً، وتراه غارقاً في الملذات حيناً آخر ، وقد اجمعت المصادر على هذا بل وجاء في النص الذي ذكره تلميذه ابو عبيد الجوزجاني . فقد امتدت حياة بن سينا الى عهد الخلفاء الضعفاء ، الطائع ، والقادر ، والقائم ، اي عهد انحطاط الدولة العباسية ، ذلك ان سلطان الخلفاء في بغداد قد هزل وضعف ، الامر الذي حدا ببعض المغامرين في كثير من اجزاء الدولة الى اقامة دول متناحرة فيما بينها ، حيث حدث في عهد المستكفي ان اولاد بويه وهم ابناء فقير صائد للسمك (١٩)على شواطئ بحر قزوين قد ادعوا انهم من سلالة الملك الساساني الفارسي ، سابور ذي الاكتاف قد استفحل امرهم ودخلوا بغداد عام ٣٣٤ هـ على رأس كتائب من الديلم ، فخلع المستكفي وسملت عيناه ، واستبدل المطيع به ، ولما انتحل الزعيم البويهي معز الدولة ، لقب السلطان الجديد، اضاف اسمه في الخطبة على المنابر الى اسم اسم الخليفة ، وكان البويهيون يميلون الى الحياة الكسروية ، حياة البلاط ، واستيزار الوزراء ، فحملوا المطيع الذي صار مفلوجاً على التنازل عن الخلافة الى الطائع ،

ويدوم عهده ثماني عشرة سنة مجهول الامر تقريباً ، ثم يخلع في نهاية الامر ويسجن ويجلس القادر في مكانه ويطول عهده نحواً من واحد واربعين عاماً دون ان تكون له شخصية بارزة في التاريخ واخيراً زالت دولة البويهيين التي نهلتها الفتن في عهد الخليفة القائم ، وقامت على أثرها دولة السلاجقة . وكان افراد بويه قد تفرقوا في الامبراطورية بعد ان قسمها أخو معز الدولة بين اولاده عام ٣٦٥ هـ ، حيث اعطى احدهم فارس وكرمان ، واعطى آخر الري واصبهان ، واعطى ثالثاً منهم همدان وديَنَوَر ، وكان ابن سينا يتنقل بين هذه الاجزاء .

ولما مات منصور بن نوح الساماني الملقب بأمير خراسان سنة ٣٦٥ هـ خلفه نوح بن منصور الذي صار اول حام لابن سينا . هذا عرض موجز لما كانت عليه البلاد الاسلامية في عصر ابن سينا ، اضف الى ذلك توليه الوزارة اكثر من مرة . ورفضه بعض الوزارات واتصاله بعدد من الامراء ، وتألب الجيش عليه ، ونعت بعض حساده اياه بالزندقة والكفر . كما ان وفاة والده الذي غمره برعايته قد حز في نفسه ، كل هذه الامور جعلت منه عرضة للتيارات العاطفية المختلفة . لذلك نلمس في حياته فترات ينغمر خلالها في الملذات والجنس (٢٠) .

فيقول متعبداً « وكلما كنت اتحير في مسألة ، ولم اكن اظفر بالحد الاوسط في قياس ترددت الى الجامع ، وصليت وابتهلت الى مبدع الكل ، حتى فتح لي المنغلق ، وتيسر المتعسر . » ثم يستطرد قائلا « وكنت ارجع بالليل الى داري واضع السراج بين يدي ، واشتغل بالقراءة والكتابة . فمهما غلبني النوم او شعرت بضعف . عدلت الى شرب قدح من الشراب ريثما تعود الي قوتي ، ثم ارجع الى القراءة . » والظاهر ان نظرة فيلسوفنا الى الدين ، بل الى شرب الشراب بالذات ، تختلف عن نظرة بعض معاصريه ، فهو يصلي ويبتهل الى الله تعالى عندما تصعب عليه مسألة ويحار في حلها ، حتى يهديه الباري عز وجل الى غايته ، وييسر له ما تعسر . وعندما يقبل الليل ويعتوره الاعياء ، ويشعر بالخمول والكسل ، ويغلبه النعاس ، عدل الى شرب الكأس لتعود اليه قواه . ويبدو مما تقدم ان ابن سينا قوي الايمان بالله ،

ويرى في الشراب اثماً طفيفاً او قد لا يرى في ذلك اي اثم إذا ما شربه للاغراض التي ذكرها . غير ان نظرة بعض المسلمين — على الاقل — اليه تختلف اختلافاً تاماً عما يرى ، فيقول الخونساري (٢١) « وكان يأتي الليل الى الوثاق ويهيأ السراج ويشتغل بالقراءة والكتابة ، واذا غلبه النوم شرب قدحاً من الخمر ، ولم يكن احد من حكماء الاسلام شرب قبله ، بل حكماء قبل الاسلام من اليونانيين لم ينسبوا الى هذا الامر الشنيع ».

وكان ابن سينا مولعاً بالمعرفة ، بل ويعيشها ، فحبه للمعرفة وشغفه بها أخذ عليه وقته كله فهو يقرأ ويحالل في يقظته ، ويفكر بها وهو على فراشه ،ولا تفارقه عند النوم ، وهذه من صفات المعنيين حقاً بالعلم والفلسفة ، حيث يصبح حب المعرفة جزءاً من كيانهم فهم يفكرون بها في اليقظة ويحلمون بها في المنام ، ودراسة ابن سينا للعلم والمعرفة يختلف اختلافاً كبيراً عن دراسة غيره لهما ، دراسة من يقرأ ليقف على بعض الحقائق وما ان مرت مدة قصيرة او بعض طويلة حتى نسي ما درس واضاع ما وقف عليه من حقائق وقت دراسته اياها وامثال هؤلاء كثيرون ، ولكن امثال ابن سينا قلة نزرة . حيث يقرأ ويعيش ما قرأ ويستزيد من المعرفة حتى تكتمل عنه بقدر طاقته ، ولا ينسى اولها او جزءاً منها بل تصبح عنده وحدة يحياها فيربطها بما يشاهد ، ويناظرها بما يقرأ ، وجاء في سيرة صاحبنا نصاً « ومهما اخذني ادنى نوم احلم بتلك المسائل باعيانها ، حتى ان كثيراً من المسائل اتضح لي وجوهها في المنام » . وبهذه الروح التوافة للمعرفة والعلم ، وقف ابن سينا وهو لا يزال في مقتبل العمر على ما كان في زمانه واستحكمت معه جميع العلوم « بحسب الامكان الانساني » ولم تزدد المعرفة التي تعلمها في هذا السن حتى يوم املاء سيرته على تلميذه الجوزجاني ، وهكذا احكم ابو علي علوم المنطق والطبيعة والرياضيات ، ثم عدل الى الالهي فقرأ كتاب ما بعد الطبيعة ، ويعترف انه لم يفهم المقصود منه واعاد قراءة الكتاب اربعين مرة حتى صار له محفوظاً ، ولكنه لم يهتد الى القصد ، ولم يمكن قدفهم ما قرأ ،والحقيقة ان ما بعد الطبيعة يحتاج الى نمط خاص من التفكير لفهمه وعرض واضح سليم لمن يضع كتاباً في هذا الباب ، فهو يختلف اختلافاً

جوهرياً عن العلوم الطبيعية والمنطق والرياضيات ، إذ ان هذه العلوم سهلة لمن اراد تعلمها ، وثابر في الدراسة وانعم النظر فيها ، وباستطاعة السوي من الناس فهمها ، ولكن ما وراء الطبيعة ، تحتاج الى اسلوب خاص من التفكير ونضج عقلي ، فلا غروان رأينا هذاالعبقري وهو في سن مبكره قد يئس من فهمه بالرغم من قراءته اربعين مرة حتى اصبح له محفوظاً . ولكنه عندما نضج ذهنياً ويسر له الله كتاباً لمؤلف متمكن من مادته ، عارضاً اياها عرضاً واضحاً ، عرض من هضم فيما يكتب نرى ان ابن سينا قد فهم المقصود مما في الكتاب ، ونال ضالته المنشودة بعد قراءة سريعة لكتاب فيلسوف اسلامي لامع وهوابونصر الفارابي الذي قرأ الالهيات التي يرجع اصلها الى شروح فلاسفة الافلاطونية وشروح ارسطو . فيقول ابن سينا في هذا الباب « وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة ، فما كنت افهم ما فيه والتبس علي غرض واضعه ، حتى اعدت قراءته اربعين مرة وصار لي محفوظاً ، وانا مع ذلك لا افهمه ولا المقصود به ، وايست من نفسي وقلت : هذا كتاب لا سبيل الى فهمه . وإذا انا في يوم من الايام حضرت وقت العصر في الوراقين ، وبيد دلال مجلد ينادي عليه ، فعرضه علي فرددته رد متبرم ، معتقد ان لا فائدة من هذا العلم . فقال لي اشتر مني هذا فانه رخيص ابيعه بثلاثة دراهم ، وصاحبه محتاج الى ثمنه ، واشتريته فاذا هو كتاب لابي نصر الفارابي ، ورجعت الى بيتي واسرعت قراءته . فانفتح عليّ في الوقت اغراض ذلك الكتاب» وهكذا تمكن ابن سينا من فهم ما بعد الطبيعة وفرح بذلك وتصدق على الفقراء شاكراً الله تعالى .

لقد اتم ابن سينا دراسته جميع العلوم في عصره ، وتمكن من استيعاب ما بعد الطبيعة وسنه تتراوح بين السادسة عشرة والسابعة عشرة ، وهكذا الم بكل معارف عصره الماماً تاماً ، حتى فتن جيله والاجيال اللاحقة . وبرز بصفة خاصة في الطب حتى جعل الامراء يتهافتون عليه لطبه ، وكان سلطان بخارى — اي ملك المشرق وخراسان — في ذلك الزمان الامير نوح بن منصور ، فعرض له مرض اعجز الاطباء وكان اسم ابن سينا قد ذاع في التوفر على الطب والعلم والقراءة . فسألت حاشية الامير اياه ، واشارت عليه باحضار ابي علي ، فحضر وشاركهم في معالجته ،

ثم توسم بخدمته ، وربما صار اول حكيم توسم بخدمة الملوك والامراء . وكان الحكماء قبل ابي علي يترفعون عن ذلك ولا يقربون ابواب السلاطين (٢٢) .

وطلب ابن سينا الى الامير نوح بن منصور ان يأذن له في دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب ، وكانت الدار خزينة كتب كبيرة وذات بيوت عديدة مملوءة بصناديق الكتب ويحتوي كل بيت على كتب علم مفرد فأحدها للعربية والشعر ، وآخر للفقه . فطالع ابن سينا فهرست كتب الاوائل ، وطلب ما احتاج اليه منها ، ورأى من الكتب ما لم يتسن لغيره رؤيتها او السماع بها ، قرأه ما طلب وظفر بفوائدها ، وعرف مرتبة كل رجل في عامه ، ويذكر البيهقي(٢٣) ان من بين هذه الكتب ما هو لابي نصر الفارابي ، واحترقت دار الكتب باسرها ، وقال خصماء ابي علي انه احرق تلك الكتب ليضيف تلك العلوم والاراء النفيسة الى نفسه ، ويقطع دابر تلك الفوائد عن اربابها والله اعلم (٢٤)

ولما بلغ ابن سينا سنة ثمان عشرة من عمره ، فرغ من العلوم كلها ، وكان آنذاك للعلم يحفظ ، ولكنه اصبح انضج حينما كتب سيرته ، فيقول في هذا الصدد «وكنت إذ ذاك للعلم احفظ ، ولكنه اليوم معي انضج ، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لي بعده وبدأ ابن سينا في تأليف الكتب وسنه واحد وعشرون عاماً . حيث صنف لجار له يدعى ابو الحسن العروضي بناء على طلبه كتاباً جامعاً في العلم ، اسماه بالعروضي ، ثبت فيه سائر الغاز العلوم سوى الرياضيات ، وكان في جوار ابي علي رجل يقال له ابو بكر البرقي(*) ، خوارزمي المولد ، فقيه النفس ، متوحد في الفقه والتفسير والزهد ، محب لعلوم الفقه والتفسير ، فسأله شرح الكتب التي يعنى بها فصنف له ابن سينا كتابين احدهما ، كتاب « الحاصل والمحصول » ويقع في قريب من عشرين مجلداً ، وآخر في الاخلاق هو « كتاب البر والاثم» وهذان الكتابان لا يوجدان إلا عند البرقي ولم يعر أحداً بنسخ منها .

---

* ذكر البيهقي ص ٥٧ : قال في كشف الظنون : ديوان البرقي وهو ابو بكر أحمد بن محمد الخوارزمي المتوفى سنة ٣٧٦ هـ قال ابن ماكولا رأيت له ديوان شعر أكثره بخط تلميذه ابن سينا الفيلسوف. والظاهر ان الرواية مغلوطة إذ كيف يكون ابن سينا تلميذ البرقي وهو في السنة الاولى من عمره حسب رواية ابن ابي أصيبعة ، أو في الثالثة من العمر وفق مصادر أخرى ، أوفي السادسة من العمر كما روت بعض كتب السير فكانت سنة ولادة ابن سينا ٣٧٥ هـ ، ٣٧٣ هـ ، ٣٧٠ هـ كما جاءت في المراجع المذكورة على التوالي

فقد ابن سينا والده وهو إذ ذاك في الثانية والعشرين من عمره ، ويبدو انه كان معتمداً اعتماداً كبيراً على والده حيث تصرفت به الاحوال بعد وفاة والده. وتقلد عملا من اعمال السلطان ، ولما اضطربت امور السامانية دعته الضرورة الى الخروج من بخارى والانتقال الى كركانج(*) والاختلاف الى خوارزمشاه علي بن مأمون بن محمد ، وكان ابو الحسن السهلي وزيراً ، وقد عرف بحبه للعلوم واهلها ، لذا اتصل بابن سينا وانزله داراً تليق به ، وخصص له مرتباً محترماً يقوم بكفاية مثله . فاملى ابن سينا على تلميذه ابي عبيد الجوزجاني كتاب « المختصر الاوسط في المنطق » وصنف لابي محمد الشيرازي كتاب «المبدأ والمعاد » ، وكتاب « الارصاد والكلية » كما صنف كتباً كثيرة اخرى ، كأول القانون ، و « مختصر المجسطي» ، وعدداً كبيراً من الرسائل

ثم انتقل عالمنا الى الري واتصل بخدمة السيدة وابنها مجد الدولة ابي طالب رستم بن فخر الدولة علي ، وعرفوه بسبب كتب وصلت معه ، وتضمنت تعريف علمه وقدره . وقد استولت على مجد الدولة علة الماليخوليا فاشتغل الشيخ الرئيس بمداواته ، وصنف هناك كتاب المعاد ، واقام الى ان قصد شمس الدولة (آ) بعد قتل هلال بن بدر بن حسنويه وهزيمة عسكر بغداد . ثم اضطر الشيخ الى الرحيل الى قزوين ، ومنها الى همذان ، واتصل بخدمة كذ بانوية والنظر في اسباب العلة . وعاد الشيخ الى شمس الدولة بسبب قولنج او مغص (ب) اصاب الاخير ، فعالجه ابن سينا حتى شفاه الله ، وفاز من تلك المعالجة بخلع كثيرة ، ورجع الى داره بعد ان اقام مع شمس الدولة اربعين يوماً بلياليها ، وصار من ندماء الامير . ثم اتفق نهوض الامير الى قرمسين (ج) لحرب عناز وخرج الشيخ في خدمته ، ثم توجه نحو همذان منهزماً راجعاً . ثم سألوه تقلد الوزارة فتقلدها ، واتفق ان تألب

---

* وهي عاصمة خوارزم وتدعى بالجرجانية أيضاً .

(آ) أبو طاهر بن فخر الدولة البويهي حاكم همدان وكرمنشاه .

(ب) المعجم الطبي الموحد . اتحاد الاطباء العرب ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٧٣ م ص١٠٥

(ج) والصحيح قرميسين وهي معرب كرمنشاه .

الجيش عليه فاغاروا على داره ، واخذوا جميع ما كان يملكه ، وحبسوه ، وسألوا الامير قتله ، فامتنع وعدل الى نفيه عن الدولة طلباً لمرضاتهم . وتوارى الشيخ في دار الشيخ ابي سعد بن دخدوك اربعين يوماً ، ولما عاود القولنج شمس الدولة ثانية ، طلب الشيخ وحضر مجلسه واعتذر اليه الامير ، فاشتغل الشيخ بمداواته ، واقام عنده مكرماً مبجلا ، واعيدت الوزارة اليه ثانية فقبلها .

وعندما سأله تلميذه الفقيه ابو عبيد الجوزجاني شرح كتب ارسطو اجاب الشيخ بأن لافراغ له ، ولكن ان رضي منه بتصنيف كتاب يورد فيه ما صح عنده من هذه العلوم بلا مناظرة مع الخصوم ، ولا اشتغال بالرد عليهم فعل ، فرضي ابو عبيد بذلك ، فابتدأ الشيخ بالطبيعيات من كتاب الشفاء وقد صنف المجلد الاول من القانون .

وكان الشيخ يجتمع في داره مع طلبة العلم كل ليلة وابو عبيد يقرأ من كتاب الشفاء وكان يقرئ من القانون نوبة ، ويذكر البيهقي (٢٥) اسماء من يطلب الشيخ اليهم القراءة فيقول « يقرأ المعصومي من القانون نوبة . وابن زبلة يقرأ من الاشارات نوبة ، وبهمن يار يقرأ من الحاصل والمحصول نوبة » . وبعد الفراغ من القراءة يحضر المغنون ، ويشتغل الشيخ وطلبته بالشراب ، وكان التدريس بالليل لعدم وجود الفراغ نهاراً خدمة للامير . ومكث الشيخ على هذا الحال زمناً .

وخرج شمس الدولة نحو طارم (د) لحرب اميرها بهاء الدولة فعاوده القولنج قرب ذلك الموضع ؛ واشتدت علته ؛ وتولته امراض اخرى بسبب سوء تدبيره ، وعدم اتباعه لتعاليم ابن سينا فخاف العسكر وفاته فرجعوا ساربين الى همذان ، وتوفي شمس الدولة في الطريق ، ثم بويع ابن شمس الدولة ، وطلبوا استيزار الشيخ فأبى عليهم .

وكاتب الشيخ علاء الدولة (أ) يطلب خدمته ، والمصير اليه ، فأقام في دار ابي غالب العطار متوارياً ، وطلب اليه الجوزجاني اتمام كتاب الشفاء ، فصنف الشيخ في دار ابي غالب العطار جميع الطبيعيات والالهيات من كتاب الشفاء .

(د) بلد في العجم ، ويقول ياقوت الرومي ان الطرم قلعة بأرض فارس ، وبفارس من حدود كرمان بليدة يسمونها بلفظهم « تارم » ، قال وأحسبها قد عربت ، لأن الطاء ليست في كلامهم .

(أ) من أمراء بني كاكويه استوزر ابن سينا ، وتوفي عام ١٠٢٩ م .

وابتدأ بالمنطق وكتب جزءاً منه ، ولم يكن لدي الشيخ كتاب يرجع اليه ، ويقول تلميذه انه كتب رؤوس المسائل اولا بلا كتاب يرجع اليه ، بل من حفظه ، وعن ظهر قلب ، ثم تولى رؤوس المسائل ، ينظر في كل مسألة ويكتب شرحها ، فكان يكتب كل يوم خمسين ورقة حتى اتى على جميع الالهيات والطبيعيات ماخلا كتابي الحيوان والنبات . وابتدأ بالمنطق وكتب جزءاً منه . والظاهر ان تاج الملك قد علم ، عن طريق ما ، بمكاتبة ابن سينا علاء الدولة ، واتهمه بذلك ، ولكن ابن سينا انكر ذلك ، ولم يقتنع تاج الملك فحث بطلبه ، فدل عليه بعض اعدائه . وسجن في قلعة يقال لها فردجان (ب) ومكث فيها اربعة اشهر ، ثم قصد علاء الدولة ابو جعفر كاكويه همدان واستولى عليها ، وعندما رجع علاء الدولة عاد ، تاج الملك وابن شمس الدولة الى همدان بعد ان انهزم منها ومر بالقلعه التي سجن فيها ابن سينا وحملوا الشيخ معهم ، فنزل في دار علوي واشتغل بتصنيف المنطق من كتاب الشفاء ، وكان قد صنف في القلعة كتاب الهداية وكتاب حي بن يقطان ، وكتاب القولنج ، فأما الادوية القلبية فقد صنفها في اول مجيئه الى همدان. وعدّ للشيخ التوجه الى اصفهان قاصداً علاء الدولة ، فخرج متنكراً وبصحبة كل من تلميذه الجوزجاني واخيه وغلامين ، وكان الشيخ في زي الصوفية ، فلما وصل الى الطبران ، على باب اصفهان ، استقبله خواص الامير علاء الدولة ، وحمل اليه الثياب والمراكب الخاصة ، وانزل في دار عبدالله بن بابي في محلة كونكنيد .

وكان الشيخ في ليالي الجمعات يحضر مجالس علاء الدولة مع علماء البلده ، وإذا تكلم استفادوا منه ، ووجد العز والاكرام في كنف علاء الدولة . واشتغل باتمام كتاب الشفاء واورد في المجسطي عشرة اشكال في اختلاف المنظر . واختصر اقليدس والارثماطيقى والموسيقى ، واورد في كل كتاب من الرياضيات زيادة رآى من الضروري تثبيتها ، وصنف كتابي الحيوان والنبات في السنة التي توجه فيها علاء الدولة الى سابور خواست وكان الشيخ في خدمته .

وكان السلطان محمد بن سبكتين وابنه مسعود لا يعدان واحداً من الملوك من اقرانهما وخصمائهما سوى علاء الدولة ، وكان يقيم ابن علاء الدولة بحضرة غزنة مدة ، وجرى يوماً عند علاء الدولة ذكر الخلل الواقع في التقاويم المعمولة بحسب

(ب) في البيهقي : نردوان .

الارصاد القديمة فامر علاء الدولة الشيخ بالاشتغال برصد الكواكب ، واطلق من الاموال ما احتاج اليه ، وابتدأ الشيخ به ، واشار على تلميذه الجوزجاني تولي هذه الامور فهو يتخذآلاتها و يستخدم صناعها ، وظفر بكثير من المسائل ، وكان الخلل واقعاً في امر الرصد لكثرة الاسفار وعوائقها . وصنف الشيخ في اصفهان كتاب «العلائي»

وكان من عجائب الشيخ ان صحبه الجوزجاني وخدمه خمساً وعشرين سنة فما رآه ينظر في كتاب جديد على الولاء ، بل يقصد المواضع الصعبة ، والمسائل المشكلة منه ، فينظر ما قاله المصنف فيها ليتبين مرتبة علمه ومقدار فهمه. وكان الشيخ جالساً يوماً بين يدي الامير ، ورجل اللغة ابو منصور الجبائي(ب) حاضر ، وجرت في اللغة مسألة تكلم الشيخ فيها بما حضره ، فالتفت اليه ابو منصور قائلا انك فيلسوف وحكيم ، ولكن لم تقرأ من اللغة ما يرضي كلامك فيها . فاستنكف الشيخ من هذا الكلام ، وتوفر على دراسة اللغة ثلاث سنين ، واستهدى كتاب تهذيب اللغة من خراسان وهو تصنيف ابي منصور الازهري ، فبلغ الشيخ مرتبة في اللغة قلما يتفق مثلها. وانشأ ثلاث قصائد ضمنها الفاظاً غريبة من اللغة ، وكتب ثلاثة كتب على طريقة ابن العميد ، والصاحب ، والصابي ، والثلاثة من علماء اللغة والادب المشهورين وامر بتجليدها واخلاق جلدها ثم سأل الامير عرض تلك المجلدة على ابي منصور الجبائي وذكر بانهم ظفروا بهذه المجلدة في الصحراء في وقت الصيد ، وطلب اليه تفقدها واعلامه ما فيها . فنظر فيها ابو منصور ، واشكل عليه كثير منها فقال له ابن سينا ان ما تجهله من هذا الكتاب مذكور في الكتب الفلانية ، وذكر له كتباً معروفة في اللغة . ففطن ابو منصور الى ان هذه القصائد والرسائل لم تكن الا لابن سينا ، واحس بأن السبب في ذلك يرجع الى الكلام الذي قاله لابن سينا فتنصل واعتذر اليه . ثم صنف الشيخ كتاباً في اللغة وسماه لسان العرب ، لم يصنف مثله ، ولم ينقله الى البياض فبقي على مسودته . لا يهتدي احد الى ترتيبه .

وكان اثر ابن سينا في الطب كثيراً حتى مكث اثره في هدا العلم في الغرب الى

(أ) في البيهقي : ثلاثين سنة .

(ب) في البيهقي : الجبان

القرن السابع عشر ، اما في الشرق فما يزال باقياً فهو جالينوس العرب . وقد حصل ابن سينا على خبرة واسعة في مدة وجيزة في الطب ، وافاد من خبرته الشخصية وتجاربه فائدة كبيرة وقد دونها في كتابه القانون ، ولكن جزءاً منها قد ضاع . وذكر انه صدع يوماً وتصور ان مادة تريد النزول الى حجاب رأسه (ج) ، وانه لايأمس ورماً ينزل فيه ، فأمر باحضار ثلج كثير ودقه ، ولفه في خرقة ، وتغطية رأسه بها ، وفعل ذلك حتى قوي الموضع ، وامتنع عن نزول تلك المادة وعوفي .ومن تجاربه ان امرأة من خوارزم اصابها السل فحضرته ، فامرها ان لا تتناول من الاشربة إلا جلنجبين (د) السكري حتى تناولت على مر الايام منه ما يقرب من مائة مَنّ وشفيت المرأة .

وصنف الشيخ بجرجان المنطق الذي وضعه في اول النجاة ، ووقعت منه نسخة الى شيراز فنظر فيها جماعة من اهل العلم هناك فوقعت لهم الشبه في مسائل منها فكتبوها على جزء ، وكان القاضي بشيراز من جملة القوم ، فانفذوا الجزء الى الحكيم ابي قاسم الكرماني ، فدخل ابو القاسم على ابن سينا عند اصفرار الشمس في الصيف ، ووضع الجزء بين يدي الشيخ الرئيس ، ولما خرج ابو القاسم صلى الشيخ مع جماعته ، وطلب الى تلميذه احضار الورق الابيض ، وقدم له التلميذ خمسة اجزاء كل واحد منها عشر اوراق بالربع الفرعوني وامر باحضار الشراب واجلس تلميذه واخاه ، وابتدأ بجواب تلك المسائل ، فكان يكتب ويشرب حتى منتصف الليل ، فغلب النوم تلميذه واخاه فامرهم بالانصراف ، وعند الصباح صلى الغداة ، وبعث بالاجزاء الى ابي القاسم الكرماني وقال : استعجلت في الجواب حتى لايمكث القاصد طويلا ، ولما طلع ابو القاسم على تلك الاجزاء تعجب كثيراً وكتب الى شيراز بهذه القصة وصارت حديثاً تاريخياً بين الناس .

ووضع الشيخ في الارصاد آلات جديدة لم يسبق ان وضعها احد قبله ، واشتغل بالرصد ثماني سنين ، وشاركه في ذلك تلميذه الفقيه ابو عبيد الجوزجاني وكان غرضه

(ج) في البيهقي : رئته

(د) وهو عقار ممزوج بورد وعسل كما جاء في تذكرة داود الانطاكي .

الوقوف على ما كتب بطليموس في هذا الباب . وصنف الشيخ الرئيس كتاب الانصاف في الارصاد في الوقت الذي قدم فيه السلطان مسعود بن محمود الغزنوي الى اصفهان ، ونهب عسكره رحل الشيخ الرئيس وكان كتاب الانصاف في جملته (أ) اما البيهقي فيروي ان محاربة وقعت بين العميد ابي سهل الحمدوني صاحب الري عن جهة السلطان محمود وبين علاء الدولة ، قصد السلطان مسعود بن محمود اصفهان ، واخذ اخت علاء الدولة . فبعث ابن سينا الى السلطان مسعود وقال : ان تزوجت بهذه المرأة التي هي كفوء لك سلّم علاء الدولة اليك الولاية ، فتزوجها السلطان مسعود ، ثم اشتغل علاء الدولة بالمحاربة ، فبعث السلطان اليه رسولا وقال : انا اسلم اختك الى ولودة (؟) العسكر ، فقال علاء الدولة لابن علي : اجب فقال ابو علي : ان كانت المراة اخت علاء الدولة فهي زوجتك ، وان طلقتها فهي مطلقتك ، والغيرة ، على الازواج لا على الاخوات ، فانف السلطان من ذلك ورد اخت علاء الدولة عليه عزيزة مكرمة .

وذكر عن ابن سينا في اكثر من موضع وربما اجمع كتاب السيرة انه كان قوي المزاج ، وكانت قوة المجامعة عليه اغلب ، وكان يكثر من استعمالها مما اثر في مزاجه ، وكان لا يعالج جسمه حتى ضعف في السنة التي حارب فيها علاء الدولة الامير حسام الدولـــة ابا العباس فراش على باب الكرخ ، واصيب الرئيس بداء القولنج (المغص) ، وحقن نفسه في يوم واحد ثماني مرات ، فتقرح بعض امعائه ، وظهر له سحج ، وكان لابد له من المسير بصحبه علاء الدولة ، فظهر به الصدع الذي يتبع علة القولنج إذا استمر طويلا ، فامر يوماً باتخاذ دانقين من بزر الكرفس في جملة ما يحقن به ، وخلطه بها طلباً لكسر ريح القولنج . فقصد بعض الاطباء الذي يعالجه ، وطرح من بزر الكرفس خمسة دراهم ، ولا يدرى اعمداً فعله ام سهواً ، وبذلك ازداد السحج ، وكان يتناول معجوناً مركباً لاجل الصرع فقام بعض غلمانه الى اضافة كمية كبيرة من الافيون اليه طمعاً في امواله وخيانة له . واعتل الشيخ حتى اصبح غير قادر على السير ، فنقل في مهد الى اصفهان ، ثم اخذ يعالج نفسه حتى تمكن من السير . وكان يحضر مجلس علاء الدولة ، الاان

(آ) البيهقي : ان العسكر نهب جزءاً منه .

ان صحته لم تعد كاملة اليه ، بل كان يمرض اسبوعاً ويشفى آخر ، وكان يكثر من تناول الادوية .

وسار الشيخ في صحبة علاء الدولة الى همدان ، وفي الطريق عاوده القولنج وعندما وصل همدان ، اشتد مرضه ، وعلم بأن لا فائدة من العلاج ، فأهمل نفسه وقال : ان المدبر الذي في بدني عجز عن تدبير بدني ، فلا تنفعني المعالجـــة ، ثم اغتسل وتاب ، وتصدق بما لديه من مال على الفقراء ، واعتق غلمانه ، ثم مات في الجمعة الاولى من رمضان سنة ثمان وعشرين واربعمائة ودفن في همدان ، ولا يزال قبره يزار حتى الان ، فيكون الشيخ الرئيس قد عمر ثلاثاً وخمسين سنة . واشارت بعض المصادر انه قد دفن في اصفهان وهذه روايات عارية عن الصحة ، وقد جاءت قبل التثبت من صحة مكان قبره .

مؤلفاته : —

لقد جاءت مؤلفات الشيخ الرئيس على لسان تلميذه الفقيه ابي عبيد الجوزجاني عداً حسب ، فهي ليست مصنفة تصنيفاً علمياً ، كما صنفت اخيراً ، وسأتولى ذكرها بطريقتين اولاهما وفق ما ذكرها الجوزجاني ، والثانية كما وردت في المصادر الحديثة . فذكر ابن ابي اصيبعة (٢٦) فهرست كتب الشيخ الرئيس كما ياتي :

كتاب المجموع مجلدة ، الحاصل والمحصول عشرون مجلدة ، الانسان عشرون مجلدة ، البر والاثم مجلدتان ، الشفاء ثماني عشرة مجلدة ، القانون اربع عشرة مجلدة الارصاد الكلية مجلدة ، كتاب النجاة ثلاث مجلدات ، الهداية مجلدة ، القولنج مجلدة ، لسان العرب عشر مجلدات ، الادوية القلبية مجلدة ، الموجز مجلدة ، بعض الحكم المشرقية مجلدة ، بيان ذوات الجهة مجلدة ، كتاب المعاد مجلدة ، كتاب المبدأ والمعاد مجلدة ، كتاب المباحثات مجلدة .

ومن رسائله : القضاء والقدر ، الآلة الرصدية وغرض قاطيفورياس ، المنطق بالشعر، القصائد في العظمة ، الحكمة في الحروف ، تعقب المواضع الجدلية ، مختصر في النبض بالعجمية ، الحدود ، الأجرام السماوية ، الاشارة الى علم المنطق ، اقسام الحكمة في النهاية وفي اللانهاية ، عهد كتبه لنفسه حي بني يقظان ، في ان ابعاد الجسم غير ذاتية له ، خطب ، الكلام في الهندبا+، في انه لا يجوز ان يكون شيء واحد جوهرياً وعرضياً ، في ان علم زيد غير علم عمرو ، رسائل له اخوانية وسلطانية ، مسائل جرت بينه وبين بعض الفضلاء ، كتاب الحواشي على القانون ، كتاب عيون الحكمة ، كتاب الشبكة والطير . وقد ورد فهرست الكتب عند البيهقي والقفطي مختلفاً بعض الاختلاف عما جاء في ابن ابي اصيبعة .

ويذكر الدوميلي (٢٧)ان ابن سينا قد كتب اكثر مؤلفاته في اللغة العربية ، ولكنه كتب بعضها باللغة الفارسية واورد بعض «الامثلة على ذلك مثل كتابه المختصر الجامع في الفلسفة العلمية وعنوانه (دانش نامه علائي) وكتاب آخر في النبض . ويستطرد الدوميلي حيث يشير الى بعض الدراسات الهامة عن ابن سينا في اثناء طبعه الكتاب ، إذ نشرت جمعية التاريخ التركية كتاباً تذكارياً ضخماً في استانبول عام ١٩٣٧ م ، بمناسبة مرور تسعمائة سنة على وفاة ابن سينا ، وقد عالج القسم الاول من هذا الكتاب حياة ابن سينا ووطنه ، وحلل آراءه الفلسفية ، ونظر القسم الثاني في ابن سينا الطبيب ، وقد اشترك عالمان اجنبيان في هذا الكتاب هما جوميو من بخارست (GOMOIV من بخارست وتريكو Royer Tricot) من انفرس ، مع عدد كبير من العلماء الاتراك ، حيث درسوا اثر طب ابن سينا في الغرب. واختص القسم الثالث من الكتاب بالرياضيات ، والرابع بالاساطير التي

(*) جاءت في البيهقي : الحكمة القدسية

(÷) وردت في البيهقي الهنديا.

وضعت حول اسم ابن سينا في تركيا وايران . واقتصر القسم الرابع من الكتاب على ترجمات تركية لبعض كتب صغيرة لابن سينا ، ومن بينها النص العربي الكتاب (الادوية القلبية) نقلا عن مخطوط في مكتبة الفاتح في استانبول ، مع مقابلته وتصحيحه بسبعة عشر مخطوطاً موجودة في استانبول ايضاً . واشتمل القسم الاخير على قائمة بمائتين وثلاثة وعشرين كتاباً لابن سينا ، توجد في ست وخمسين مكتبة في استانبول ، وقائمة طويلة لجميع الشروح والترجمات لكتب ابن سينا ،المكتوبة في المشرق والمحفوظة في المكتبات التي ذكرت آنفاً .

يعتبر الدوميلي بأن الكتاب الذي وضعته جمعية التأريخ التركية في مؤتمرها الذي اشرنا اليه ، كتاب لا مثيل حيث اشترك فيه ثمانية وعشرون عالماً ، وتضمن اربعين بحثاً . واطرى الدوميلي الكتاب الذي اخرجه المؤتمر ، واعتبره من الكتب المهمة جداً الا انه اختلف وجمعية التأريخ التركية في نسب ابن سينا ، إذ اعتبرته تركياً ، وفي نظره فارسياً.والحقيقة انه من الصعوبة بمكان تحديد جنس العلماء في ذلك العصر ، فكل مؤلفاتهم باللغة العربية كلا او بعضاً ، وكان حبل الاسلام جامعهم ولغة القرآن لغتهم ، واتسعت رقعة الاسلام التي حملها العرب اتساعاً كبيراً فشملت البلاد العربية كلها وايران وتركستان وافغانستان وجزءاً غير يسير من الهند،وكان العلماء من عرب واعاجم يكتبون باللغة العربية ، لغة ثقافة ذلك العصر ، ويدينون بالاسلام وقد آخى الدين الاسلامي بين القوميات اخاءً عظيماً ، واختلط المسلمون العرب وامتزجوا بالقوميات الأخرى امتزاجاً يكاد يكون كلياً ، وسادت الثقافة العربية ، حتى اضحت اللغة العربية لغة العلم والادب ، شأنها في ذلك شان اللغة اللاتينية في اوربا قبل بضعة قرون ، واصبح ارجاع نسب عالم اسلامي الى قومية معينة امراًغير يسير وهكذا ادعى كل من العرب والفرس والترك والهنود والسوفييت انتساب البيروني اليهم ، وكان البيروني يكتب باللغة العربية ويعتبرها لغة العلم ، ويحبها حباً جماً، وثقافته عربية اسلامية وهو القائل في مقدمة كتابه الموسوم « بالصيدنة» ما نصه« والى لسان العرب نقلت العلوم ، وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والاوردة ، وان

كانت كل امة تستحلى لغتها التي الفتها واعتادتها واستعملتها في مآربها مع ألافها واشكالها ، واقيس هذا بنفسي وهي مطبوعة على لغة لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب والزرافة في الكراب ، ثم متنقلة الى العربية والفارسية فأنا في كل واحدة دخيل ، ولها متكلف ، والهجو بالعربية احب الي من المدح بالفارسية .»

والنص يدل على انه غير عربي وغير فارسي وربما كان من خوارزم وذكر البيروني في بعض ما نظم من الشعر ، انه يكاد يجهل اباه فكيف يعرف نسبه وقومه لم يكن هذا حال البيروني فحسب ، بل هو حال كل علماء ذلك العصر الذين كان ولاؤهم للاسلام واللغة العربية ، فثقافتهم عربية محضة وولاؤهم اسلامي خالص وتغذوا بالثقافة العربية الاسلامية ، وقدموا نتاجهم العلمي الرائع باللغة العربية ايضاً ، وانه لمن التعصب بمكان محاولة ارجاع نسب اودم هؤلاء العلماء الى جنس او دم ، ولو كانوا احياء لأبوا عليهم ذلك .

ويبدأ الدوميلي البحث عن ابن سينا بأن الاخير لم يكن طبيباً وفيلسوفاً فحسب (ولقد لقب بالمعلم الثالث)اي بعد ارسطو والفارابي ، بل عني ايضاً بمسائل الكيمياء والطبيعة . وقد سجل تقدماً ملحوظاً فيما يختص بعلم الموسيقى ، الوثيق الصلة بكل من العلم والفن عندالعرب كما كان عند اليونان . وربما كانت شهرة ابن سينا قد ساعدت في وضع كتبه في الطب مثل كتاب القانون في الطب ، فوق كتب الرازي ، وقد ترجم هذا الكتاب ترجمات عديدة في الشرق والغرب ، وبين الطبعات الشرقية الجيدة طبعة بولاق في القاهرة سنة سبع وسبعين وثمانمائة والف ، وتوجد في الغرب طبعة فاخرة طبعت في روما عام ثلاثة وتسعين وخمسمائة والف ، واشتملت هذه الطبعة على كتاب النجاة ايضاً . وترجم جيرار دي كريمونا كتاب القانون باكمله ، ونشرت ترجمته في عصر النهضة الاوربية في طبعات كثيرة بعضها كاملة وبعضها جزئية ، ومن اقدم الطبعات الكاملة طبعة ميلانو ١٤٧٣م ، وبادا ١٤٧٦م ، والبندقية ١٤٨٣ م ، وترجم ناتاها مئتي في رومة كتاب القانون الى اللغة العبرية وطبعت الترجمة في نابلي ١٤٩١م– ١٤٩٢م، اي بعد الترجمة بنحو من

اثنتي عشرة سنة . ومن طبعات القرن السادس عشر ، على كثرتها تستحق العنـــاية ولا سيما الطبعة التي نشرها (لگنتـــا Les Giunta) في البندقية وهي موجودة منذ سنة ١٥٢٧ م ، والطبعات التي طبعت سنة ١٥٩١ م ، و ١٦٠٨ فـــي جزءين .

اما عن تراجم كتاب القانون في الطب التي ظهرت في عهد النهضة الاوربية ، فاجودها الترجمة التي وضعها (جيرالامو راموسيو Gerolama Ramusio في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ،الا ان هذه الترجمة لم تطبع في حينها ولكنها كانت مصدر انتفاع من كتب عن ابن سينا فيما بعد ، وقد كثرت ترجمات الكتاب في هذا العصر الا ان اغلبها لم يطبع .

وهناك ترجمات جزئية لكتاب القانون ، اهمها ترجمه جرونر التي بدأها بدراسة مفصلة للكتاب برمته ، واتبعها بترجمة جزئية . حيث ترجم الجزء الاول فحسب ، وترجم (دي كونتج) القسم الخاص بالتشريح ، وترجم (هرش برج) (وليبر) القسم الخاص بامراض العين : علاج العين لابن سينا ، ليبزج ١٩٠٢ م .

وترجم يوسف فون زنتهايمر الكتاب الخامس من القانون المتضمن الادوية المركبة عند العرب وفقاً للمجلد الخامس من القانون . وكانت كتب ابن سينا ولا سيمـــا كتاب القانون في الطب مصدراً لرسائل الدكتوراه في برلين ، الا ان هذه الرسائل قد احتوت على جزء من الكتاب فقط ونال كل من ميخايلوفسكي سنة ١٩٠٠ م واوسبانسكي سنة ١٩٠٠م، ودي كويفا سنة ١٨٩٩ م ، وبرنيكوف سنة ١٩٠٠م شهادة الدكتوراه في بحث بعض الفقرات من كتاب القانون .

ويضم كتاب القانون في الطب خمسة اجزاء ، يحتوي الجزءان الاول والثاني على شرح لعلم الفسلجة ، وعلم الامراض ، وعلم الصحة . واقتصر الجزءان الثالث والرابع على طرائق معالجة الامراض المختلفة ، واختص الجزء الخامس في تركيب الادوية وتحضير العقاقير ، اضافة الى ملاحظات ابن سينا الشخصية في الطب . لقد ترجم الكتاب . كما اسلفت . كلا او جزءاً الى اللغات الاوربية مراراً عديدة ،

ودرس في جامعات كثيرة ، اما النص العربي للكتاب فكتب في روما عام ١٥٩٣ م ، واعيد طبعه في مصر حديثاً (٢٨)

اما الكتاب الثاني — من حيث — الاهمية فهو كتاب الشفاء ، والكتاب اشبه ما يكون بدائرة معارف ، فهو يحتوي على رسائل مطولة في المنطق والطبيعة والرياضيات وما وراء الطبيعة وترجم الكتاب كلا اوجزءاً ترجمات عديدة ، وترجمت رسائل في ما وراء الطبيعة من الكتاب نفسه ثانية الى اللغة الالمانية عام ١٩٠٧ م ، وقد قام « Horon » بهذه الترجمة ، كما ترجم (كرام Carame القسم نفسه الى اللاتينية في روما عام ١٩٢٦ م ، وتقول الموسوعة البريطانية بأن تأثير الفارابي في منطق ابن سينا واضح في هذه الرسائل ، والحقيقة ان ابن سينا يختلف والفارابي اختلافاً جوهرياً في النفس والالهيات ، ولاسيما في ترتيب النفوس . فهو يرتبها ترتيباً تصاعدياً ، فيتحدث عن النفس النباتية ، ثم الحيوانية ، ثم الناطقة . ويدرس النفس الناطقة من جوانب كثيرة ، وليس في كلامه عن الحواس شيء جديد غير وصفه الفسلجي لمراكز الحواس من المخ وانتقال الصور المحسوسة في الجهاز العصبي ، حيث يصف هذه الامور وصفاً ادق مما كان في عصره . الا ان أثر جالينوس واضح في هذا الوصف .

اما آراؤه في العقل فهي تخالف آراء الكندي والفارابي الى حد ليس بالقليل. فنظر ابن سينا الى العقل انه قوة تستكمل بالمعقولات شيئاً فشيئاً ، فالعقل « هيولاني» في باديء الامر ، خال عن كل معقول ، ثم يصير (بالملكة) ، إذا استكمل بالمعقولات الاولى ، ثم « بالفعل » اذا حصل شيئاً من العلوم الكسبيه ، ثم مستفاداً اذا كانت تلك العلوم الكسبية حاضرة فيه بالفعل وهو يطالعها بالفعل . والفعل يكتسب العلم بالفكر والحدس (بصيرة النفس) ، والفكر حركة للنفس الناطقة تبحث بها عن الحدود الوسطى لمطلوب ما ، حتى إذا ظفرت بها رتبتها في مقدمات قياسية ، اما الحدس فهو ظفر بالمطالب وحدودها الوسطى دفعة واحدة ، ومن الناس من يكون من اصحاب الفكر وحده ، اي تأتيه المعرفة عن طريق الحواس والتجربة

الحسية ، ومنهم من يحدس الى جانب الفكر ، اي تأتي المعرفة عن بصيرة النفس اضافة الى التجارب الحسية . ومنهم من يكون علمه كله ، اي عن بصيرة النفس او الايحاء وهؤلاء هم الانبياء ، ويسمى العقل حينئذ عقلا (قدسياً) ، وهكذا يجعل ابن سينا علم الانبياء ، ارفع علم على خلاف الفارابي الذي يرى علم الفلاسفة ، اوثق وابعد عن الخيال والرمز . وبهذا يرتفع ابن سينا على المعلم الاول ارسطو في هذا الحقل ، إذ ان ارسطو يعتبر المعقولات كلها مستمدة من المحسوسات وترتيب النفس لها . وقد اشار ابن سينا الى ذلك في كتابه (التعليقات على كتاب النفس لارسطو) مخطوط في القاهرة ، ص ٦٩ — ٧٠ (٢٩)

وقد كانت براهين القدماء على لامادية النفس ، وتباينها عن الجسم منطقية ، اما ابن سينا فقد كان اول من لجأ الى التجربة النفسية حيث قال : لنتصور انساناً خلق محجوب البصر لا يرى من إهابه شيئاً ، متباعد الاطراف لا يلمس جزؤ من جسمه جزءاً آخر ، يهوى في خلاء لا يصدمه فيه قوام الهواء حتى لا يحس ولا يسمع أليس يغفل مثل هذا الانسان عن جملة بدنه ؟ ، ا ليس يشعر بشيء واحد فقط هو ثبوت (نفسه) أنيته ؟ فالنفس إذاً موجودة وجوداً غير بدني او غير حسي ، ونجد مثل هذا البرهان عند ديكارت ، مما جعل بعض الباحثين يذهبون الى مكان اطلاع ديكارت على آراء الفيلسوف الاسلامي ابي على ابن سينا وقداثبت فورلاني (٣٠) ان النصين الواردين في الشفاء عن موضوع النفس بالذات ، كان قد نقلها الى الى اللاتينية الفيلسوف غليوم

ان أغلب الدراسات لكتاب الشفاء تتصل بالقسمين الاول والثاني من الكتاب ، أي القسمين المتعلقين بالطبيعة وبماوراء الطبيعة. وقدنسب العلماء في الغرب بعض آراء ابن سينا الفلسفية الى ارسطو ، ودونت جزءاً من منطق ارسطو ، ولكن ابراهيم مدكور في كتابه (منطق ارسطو في العالم العربي)(٣١) اتخذ من القسم الاول من كتاب ابن سينا المدكور دليلا مرشداً في عرض الموضوع ، كما قدم ايضاً في اثناء الكتاب ترجمات لكثير من القطع ، وطبعة هولميارد عظيمة الفائدة ، وهي تقدم

فقرات من الشفـــاء كانت في الترجمات اللاتينية لارسطو ، بينما تؤلف الفصول الثلاثة الاخيرة من الجزء الرابع ، وقد كان ينظر اليهما زمناً طويلا على انها منحولة — ولكن منذ زمن بعيد — من تأليف ارسطو . وقد ابان المؤلفان ، مدكور وهولميارد مع نشرهما للنص العربي ، ان هذه الفصول موجودة في كتاب الشفاء ، وانها ترجمت عنه ، اواخذت عنه بتوسع مع بعض الحذف ،من قبل ساراشل (نحو سنة ١٢٠٠م) ثم وضعت بعد ذلك على انها ذيل للجزء الرابع من كتاب ارسطو .

والكتاب الثالث لابن سينا . من حيث الاهمية هو كتاب الاشارات والتنبيهات وقد كتبه (فورجي Forge) باللغة العربية عام ١٨٩٢ م ، (وميهرن Mehren عام ١٨٩٢ م ، اما قصيدته المشهورة وفي الروح والتي مطلعها :

هبطت اليك من المحـــل الارفـــع ورقاء ذات تـــعزز وتـــمنع

فقد نقلها (Van Dyke — فان دايك) الى اللغة الانكليزية ، فيروتا ١٩٠٦ م

وكتب ابن سينا رسائل عديدة في الحكمة والطبيعيات والتصوف والموسيقى ،ولسنا هنا في مجال جرد كتب ابن سينا جميعها والتعليق عليها وما كتب عنها وعدد ترجماتها ، ومكان وجودها ، ومن اراد ذلك فليرجع الى الاب شحاتة قنواتى(٣٢) حيث الم بكتب ابن سينا الماماً يكاد يكون تاماً وفهرساً ابجدياً وعلق عليها تعليقاً علمياً واضحاً ، وذكر بعض الرسائل في الكيمياء ، وفي حوزة المجمع العلمي العراقـــي رسالتان صغيرتان ، قد صورهما المجمع عن الاصل المحفوظ في مكتبة ايا صوفيا في استانبول .

انتهى القسم الاول يتبع

المراجـــع

الموسوعة البريطانية Br· EMcy المجلد الثاني ص ٨١٣

١ ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة مكتبة الحياة ـ بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٤٣٧

٢ـ وفيات الاعيان لاحمد بن محمد ، ابن خلكان (ت ٦٨١ ﻫ) ج ١ ، ص ٤١٩ـ٤٢٤ ، القاهرة ١٩٤٨ م

٣ـ ابن سينا للبارون كارادوفو ترجمة عادل زعيتر ، دار بيروت للطباعة والنشر سنة ١٩٧٠ ص ١٣١ .

٤ـ دائرة المعارف الاسلامية : ص ٢٠٣ ـ ٢١١ .

٥ـ القفطي : حكماء الاسلام ليبزك سنة ١٣٢٠ ﻫ ص ٣١٧ ـ ٣٢٦

٦ـ البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، تحقيق محمد كرد علي ، مطبعة الترقي بدمشق ص ٥٢ ـ ٧٢ ، ١٩٤٦ م

٧ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج١ ص ٤١٩ ـ ٤٢٤ ، القاهرة ١٩٤٨ م.

٨ـ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٩ ، بيروت ١٨٩٠م

٩ـ الزركلي : الاعلام ٢ـ٢٦٢ ـ ٢٦٣ . الطبعة الثانية

١٠ـ العسقلاني : لسان الميزان ، الطبعة الاولى ، حيدر آباد ١٣٣٠ ﻫ

١١ـ ابن ابي اصيبعة : راجع المصدر رقم (١) .

١٢ـ الخوانساري : روضات الجنات ، الطبعة الثانية ـ حجر ـ إيران ص ٢٤٠ ـ ٢٤٥

١٣ـ حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ٣ ، ص ٣٧٦

١٤ـ ابن قيم الجوزية : اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، ج٢ ص ٢٦٦ـ ٢٦٨ ، القاهرة ١٩٣٩ م

١٥ـ ابن الاثير : الكامل ج ٦ ، اخبار ، ص ٤٢٨ .

١٦ـ العسقلاني : راجع المصدر رقم (١٠) ج٢ ، ص ٢٩١

١٧ـ البيهقي : راجع مصدر رقم (٦) ص ٥٣

١٨ـ الخوانساري : راجع مصدر (١٢) ص ٣١٨ .

١٩ــ البارون كرادفو : راجع مصدر رقم (٢) ص ١٣٠

٢٠ــ الموسوعة البريطانية ، المجلد الثاني ص ٨١٣

٢١ــ الخوانساري : روضات الجنات ، الطبعة الثانية ، حجر ايران ص ٢٤١ .

٢٢ــ البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، تحقيق محمد كرد علي ، مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٦ ، ص ٥٦

٢٣ــ البيهقي : انظر المصدر رقم (٦) ص ٥٦

٢٤ــ البيهقي : المرجع رقم (٢٣)، ص ٥٦

٢٥ــ البيهقي : انظر المرجع رقم (٦) ص ٦٢

٢٦ــ ابن ابي اصيبعة : انظر المرجع رقم (١) ص ٤٤

٢٧ــ الدوميلي : العلم عند العرب واثره في تطور العلم العالمي ــ ترجمة الدكتور عبدالحليم نجار والدكتور محمد يوسف موسى ــ الطبعة الاولى ، دار القلم ص ١٩٧ ــ ٢٠٦ ، ١٩٦٢ م

٢٨ــ الموسوعة البريطانية ، المجلد الثاني ص ٨١٣ .

٢٩ــ دائرة المعارف الاسلامية ، ص ٢٠٦

٣٠ــ دائرة المعارف الاسلامية ، ص ٢٠٧

٣١ــ الدوميلي : العلم عندالعرب ص ٢٠٣ ــ ٢٠٤ (مرجع رقم ٢٧)

٣٢ــ الاب جورج شحاتة قنواتي ــ مؤلفات ابن سينا . جامعة الدول العربية ، الادارة الثقافية ــ دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٠ م .